الفصل الثالث عشر

«المبشرون والملوك»

«الرب يعطي كلمة. المبشرات بها جند كثيرة.
ملوك جيوش يهربون. ملازمة البيت تقسم الغنائم»

الكتاب المقدس ـ المزامير: 68

أثار سقوط الرها الذعر بين الحكام المسيحيين في الممالك الصليبية، الذين عرفوا نقطة ضعفهم، وكان المسلمون متفوقين عليهم كثيراً في العدد، وأما إخفاقهم الظاهري في إعادة بناء أنفسهم في أعداد كافية لتعويض خسائرهم في الموت فقد شكل مشكلة مقلقة باستمرار، لم تفقها مشكلة أخرى في هذه الآونة، واستمر الحجاج في القدوم إلى الأماكن المقدسة في أعداد كبيرة، وقد أقنع العديد منهم في البقاء لفترة هناك، غير أن ذلك لم يكن ليغير كثيراً من خسائرهم الكثيرة ، وعندما عادوا إلى الوطن لم يعد كالعادة معهم إلا القليل من الإفرنج المقيمين كي يروا بلادهم الأم مرة ثانية قبل موتهم، ولولا الإمدادات الهائلة التي أرسلت من الغرب لمساعدتهم لبدا المستقبل فارغاً ومجهولاً، وتقرر إرسال رسول إلى البابا ليحضه على الدعوة إلى حملة صليبية جديدة.

وعهد بهذه المهمة إلى أسقف منطقة جبلة وكان يدعى هيو، الذي لا يعرف عنه شيء غير كراهته للبيزنطيين، ورغم الحاجة الواضحة للحصول على المساعدة لم يصل إلى إيطاليا حتى بعد سنة من سقوط الرها، ووجد هذا البابا يوجينيوس الثالث، الذي كان قد اعتلى في العرش البابوي في فيتربو وقد أزعجته أخباره بشكل خطير، ووافق البابا مع هيو أسقف جبلة على أن الحملة

الجديدة لن تحقق النجاح وتعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه في الشرق إذا كانت صغيرة، ولكن الحديث عن حملة جديدة كان أسهل من الدعوة إليها، فقد تغيرت الأحوال منذ ايام البابا أوربان، ورغم أن يوجينيوس أصدر بيانا في حينه دعا المؤمنين للذهاب لانقاذ اخوانهم في الممالك الشرقية، فإنه لم يكن من أحد ليعير انتباهاً لذلك، فقد كان الناس في شغل شاغل بشؤونهم الحياتية عن ذلك، وخبا السحر الذي أحاط بفكرة أخذ الصليب في الأيام الماضية بالأنفة والعادة، وبالاضافة، لو أراد شخص قتل عدد من المسلمين فما عليه إلا الاشتراك في حملة صليبية في اسبانيا، فهي أسهل وأقرب من مملكة القدس، وهناك ما يكفي من الأندلسيين المسلمين لكل مسيحي مخلص تاق إلى القيام بالذبح المقدس.

وكان إخفاق دعوة يوجينيوس لحملة صليبية جديدة دليلاً سيئاً، لأنها أكدت افتقاره إلى النفوذ. كما كانت روما نفسها يحكمها جماعة مناهضة للبابوية يترأسها رجل يدعى أرنولد من بريسشا ـ الذي لم يكن يسمح ليوجينيوس بدخول مدينته، كما أنه كان على خلاف مع روجر الثاني في جزيرة صقلية التي كانت مملكة ذات موقع متمكن، يمكنه الاعاقة أو المساعدة في إرسال أية حملة إلى الشرق عبر البحر، وكان روجر رجلاً قادراً فخوراً وعاطفياً غير أنه كالعديد من النور ماندبين خلوا من العقل الحضاري، ولم يكن البابا الشخص الوحيد الذي هاجمه بفظاظة أسلوبه، ولحسن الحظ أن يوجينيوس كان على علاقات طيبة مع كوزاد الثالث أوف هوهنزتوفن ملك ألمانيا، ومع ملك فرنسا الورع لويس السابع، الذي إليه كان يوجينيوس قد وجه بيانه في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وكان لويس خائباً مثل الباباب نفسه بسبب الاستقبال البارد الذي أظهرته طبقة النبلاء في فرنسا، التي جمعها في بورجيوس عند عيد الميلاد سنة 1145، لسماع البيان، غير أنه كان لديه إحساس ألا يعادي تابعيه بالالحاح في الأمر، بل على العكس قرر الانتظار حتى عيد الفصح ثم المحاولة مرة ثانية مع مساعدة راعي دير كليرفو.

وكان برنارد راعي دير كليرفو في السادسة والخمسين من عمره، وكان في ذروة شهرته، وقد ولد من عائلة نبيلة فرنسية في فونتين قرب إجون في العقد الأخير من القرن الحادي عشر، وأصبح ناسكاً في الثالثة والعشرين من العمر ومؤسساً لدار الرهبنة البنديكتية في كليرفو بعد سنتين، فقد كان ابن عالمه ويومه ورجل العصور الوسطى الأول مع أكبر الفضائل في ذلك الوقت وبعض قيودها، وفوق ذلك كله، كان زاهداً بإخلاص وبكل قلبه مكرساً حياته البسيطة المتقشفة للتعذيب الذاتي، لعله يخصص نفسه لمواصلة التصوف السامي، أما معرفته في الانجيل فكانت هائلة، وكعالم باللاهوت كان صافي الذهن شديد الذكاء، وفوق ذلك فهو متحدث ملتزم باللفظ، ومبشر متألق لامع، وقد جعلته سمعته في القداسة، وقوة شخصيته واحداً من أقوى وأشهر رجال أوروبا في عصره، ولكن ثمة جانب أقل جاذبية في شخصيته أيضاً فقد بدا لعدة مرات أنه عديم الرحمة، وغير محب على الإطلاق، وكان حكمه على ابيلارد من هذا النوع، وعمل على تنفير العديد من المؤرخين فيما بعد بينما لم يؤثر عداؤه المتحفظ لمسيحي الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية إلا قليلاً لتحببه إلى الآخرين، ولكنها كانت أخطاء زمانه ومجتمعه، ومن البلادة في شيء عدم الاعتراف أنه في مقاييس عصره كان رجلاً ذا قداسة كبيرة، وفي مقاييس أي عصر من العصور كان رجلاًمتميزاً له منزلة رفيعة.

ودعا لويس السابع إلى اجتماع آخر وأمر تابعيه بالقدوم إلى فيزلي في 31 آذار 1146، وانتشرت أنباء وجود برنارد هناك بسرعة، فتدفق الناس هذه المرة من جميع أنحاء فرنسا في أعداد كبيرة لإطاعة دعوة الملك، ومثلما أطلق أوربان الدعوة للحملة الصليبية الأولى في كليرمونت، أوضحت الكاتدرائية في فيزلي أنها صغيرة جداً لتتسع لتلك الحشود من الناس التي قدمت لسماع وعظ برنارد، الذي تعين عليه أن يخاطبهم في الهواء الطلق في حقل خارج المدينة، وليس ثمة تدوين لما قاله، ولكن من المعروف أنه قرأ عالياً البيان البابوي في الدعوة لحملة صليبية جديدة واعداً بالغفران جميع من اتخذ الصليب قبل

مخاطبته للحشد بكلماته الخاصة، وحاثاً إياهم أن يستجيبوا لدعوة البابا، وكخطيب كان فريداً لا يضارع. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الناس بالدعوة للصليب، وصرخوا في نشوة حاسة عظيمة كتلك التي أثارها أوربان قبل إحدى وخمسين سنة سابقة، وكان الملك الرجل الأول يحمل الصليب ومعه العديد من النبلاء الذي استمعوا ببرود إلى مناشدة البابا قبل ثلاثة أشهر وتعثروا في مشيتهم ببعضهم البعض في حماسهم لاتباع مثله الملكي، وفي الحال لم يعد هناك مواد يصنع منها الصليب، حيث قدم الكثير والكثير من الناس للاندماج في صفوف جيش المسيح، وبلمحة مثيرة خلع برنارد ثياب نسكه عن نفسه وقسمها صلبان للمتطوعين، وفي الحقيقة كانت الصلبان تصنع من أية مادة موجودة عندما هبط الليل في حين كانت الإثارة التي حركها برناردكبيرة، ومع نهاية اليوم تأكد نجاح دعوة البابا يوجينيوس من أجل حملة صليبية جديدة.

وارتحل برنارد من فيزلي نحو الشمال حيث أثارت الحماسة للقيام بحملة صليبية جديدة حالة هياج هستيري ضد اليهود، ففي ألمانيا استثار ناسك من جماعة هيئة برنارد وكان يدعى رودولف أبناء وطنه ضد اليهود الذين كانوا يذبحون في جميع المدن الكبرى في منطقة الراين، وأمر برنارد البنديكيين المجرمين بالعودة إلى ديره، وأوقف القتل على الفور من قبل السلطات هناك، لكن ليس قبل موت العديد من اليهود، ثم حول برنارد انتباهه إلى جنوب ألمانيا عابراً مدنها الواحدة بعد الأخرى وداعياً مبشراً حيثما تنقل، ورغم أنه تعين ترجمة مواعظه إلى اللغة الألمانية، إلا أنها كانت ناجحة جداً مثل سابقتها، واحتشد الرجال للانضمام إلى الحملة، لكن الملك كونراد كان أقل حماسة وبدون دعمه الفعلي لن يتكون جيش ألماني للصليبيين له أهمية عسكرية أو نفوذ كبير، ولكن شابه في أسوأ الأحوال غوغاء بطرس الناسك. ولذا تقرب برنارد إلى الملك الذي وافق على مقابلته في سبير حيث التزم نظام حمية في عيد الميلاد، وفي ذلك اليوم، ألقى موعظته أمام كونراد بحيويته المعتادة، ولكنه في هذه المرة أخفق في التأثير على جمهوره، ولم يتحرك الملك الألماني،

ومع ذلك لم تكن كلمة هزيمة مفهومة عند برنارد. فبعد يومين ألقى موعظة مرة أخرى أمام الملك وأكد هذه المرة على رجله، فبدأ حديثه بلطافة كافية ولكنه عندما طور موضوعه بدأ توجيه خطابه بنفسه أكثر فأكثر إلى كونراد شخصياً وتحدث إليه على أنه الشخص الذي أسبغ عليه الرب كثيراً من فضله، وفي ذروة الكلام المروع والمثير تحول إلى الملك وتحدث إليه مباشرة صارخاً: «أيها الرجل، ماذا يمكن أن أفعل لك ولم أفعله قبلاً؟» إنها جزء مقتبس من التوبيخ الذي يرتل يوم الجمعة الحزينة في كاتدرائيات وكنائس العالم أجمع، أو توبيخ المسيح فوق الصليب بجحود شعبه، واهتز كونراد متأثراً، ووعد بأخذ الصليب وقيادة حملة صليبية ألمانية ضد أعداء المسيح، وعندما عاد برنارد إلى فرنسا فرحاً بالنجاح الذي أنعم عليه الرب، عندها حذا النبلاء في ألمانيا مثل ملكهم متنافسين مع بعضهم البعض بسرعة لتثبيت الصليب على أكتافهم.

وكان يوجينيوس أقل سروراً بنجاح برنارد من برنارد نفسه. فهو لم يعزم أن يشغل الألمان في الحملة الصليبية الجديدة، لأنه من ناحية خاف من نتائج الحملة تحت قيادة ثنائية لملكي ألمانيا وفرنسا، ومن ناحية أخرى، كان في حاجة إلى دعم كونراد ضد الطموح الجماهري لأرنولد أوف بريشيا وضد زمرته المناهضة للبابوية في روما، وقد برهنت الأحداث على حكمته.

وكان كونراد أول من زحف لمساعد إخوانه المسيحيين في الممالك الصليبية، وغادر في شهر آيار بعد أن جمع جيشه في ريجينزبرغ. ثم انطلق في الأراضي العالية مع حوالي عشرين ألف رجل في الطريق التي سلكها غودفري أوف بوليون وإخوته، كما غادر الملك الفرنسي متز بجيش أصغر قليلاً بعد شهر من ذلك، وعرض روجر لثاني في صقيلة ـ رغم عدائه للبابا ـ نقل الجيشين عبر البحر، ولكن لويس لم يثق به كما فضل كونراد سلوك السبيل المؤدي إلى القسطنطينية حيث اعتلى الغرش الامبراطور مانويل الأول كومينينوس الذي كان حليفاً له.

وخلال ذلك أبحر جيش صغير من للانكليز مع بعض الرجال من البلدان المنخفضة حملوا الصليب، ومن انكلترا إلى الأرض المقدسة في أسطول من السفن الانكليزية. وكقوة عسكرية لم تكن في أهمية أحد الجيشين الكبيرين اللذين سلكا طريق البر، بل كانت قد أتت كبعض دعم بحري مرحب به لو أنها وصلت لشبونة، ولكنها لسوء الحظ، لم تصل. فقد أرغمتها الأجواء السيئة على الالتجاء إلى مصب نهر دورد في البرتغال حيث كان كونت البرتغال في حرب مع مسلمي شبه الجزيرة الايبيرية منذ سنين، وتم هنا إقناعهم بالانضمام إليه بفرض الحصار على لشبونة التي كان يحتفظ بها السملمون، وبمساعدة الرجال الفلمنكيين والانكليز تم استمالة المدينة إلى الاستسلام شرط أن يترك مدافعوها أحياء، ووعدوا بأرواحهم كما ينبغي، ولكن حالما فتحت أبواب المدينة نسي الصليبيون وعدهم وقتلوا أعداء المسيح بكل عنفوان.

وكان عبور الجيشين الصليبيين الكبيرين عبر هنغاريا مسالماً، ولن حالما وصل ألمان كونراد الأراضي البيزنطية بدأوا بإثارة القلاقل، وبينما كان الرسل من القسطنطينية يقنعون كونراد أن يقسم يمين الولاء للامبراطور مانوئيل، بدأ جيشه من الألمان يسلب الريف، ويقل من يقف في وجهه، وفي فيليبوبولس قاموا بأعمال الشغب وأحرقوا ديراً وقتلوا جميع الكهنة إنتقاماً لموت واحد من عناصرهم كان قد قتله لصوص، وقرر مانوئيل أن يمنع دخولهم إلى القسطنطينية بالقوة ولكنه أعاد النظر في ذلك عند اللحظة الأخيرة، ووصلوا إليها في بداية شهر أيلول.

وكان الفرنسيون اقل إثارة للاضطرابات مع السكان المحليين رغم أنهم وجدوا أنه من الصعوبة البالغة أن يجدوا طعاماً كافياً للأكل، فد كان الألمان قد استهلكوا معظم الطعام المتوفر ونشروا الرعب عند الجميع بأعمالهم الوحشية إلى درجة أن الفلاحين تجنبوا الجيش الجديد من الصليبيين، وخبأوا ما لديهم من الطعام، ومع ذلك كان البيزنطيون أكثر مساعدة تزويدهم قدر المستطاع، فكانت رحلة فرنسيي لويس خالية من الأحداث حتى اقتربوا من القسطنطينية، وقبل وصولهم المدينة أسرع بعضهم على رأس مجموعة رئيسية على أمل شراء

بعض طعام ألمان كونراد، غير أنهم استقبلوا بنظرات العداء والجفاء، ولم يبعهم أحد طعاماً على الإطلاق، واضطروا أن ينتظروا في جوع وامتعاض وصول زملائهم، ورحل بعض الرجال من أرض اللورين مع الأمان وجعل الأمور تسوء أكثر بإخبارهم روايات عن الأساليب الوحشية التي لقوها في رحلتهم، ولم يمض وقت طويل حتى تأزمت العلاقات بين الجيشين الغربيين إلى نقطة الانفجار تقريباً، واتفق الألمان والفرنسيون حول نقطة واحدة فقط: وهي كراهيتهم لمضيفيهم البيزنطيين بشدة، وعدم الثقة بهم على الإطلاق.

ولم يمكث الصليبيون كثيراً في القسطنطينية حيث غادر كونراد أولاً على رأس جيشه إلى نيقة. ولم يكن هذا رجلاً حسن التأثير أو يتحلى بالصفات التي يحتاجها القائد العسكري، وفوق ذلك، لم تكن صحته جيدة فقد تجاوز ربيع سنين عمره، وبسبب العداء المستحكم بين رجاله والفرنسيين قرر اتخاذ طريقه عبر الأناضول على نحو منفصل، وكان قراره متفهماً. ولكن الانقسام بين القوى المسيحية بهذه الطريقة سيؤدي إلى التردي في مكروه، وقد أخبرهم بذلك الامبراطور مانوئيل، ومع ذلك كان كونراد عنيداً فزوده مانوئيل بالمرشدين وأعطاه بعض النصائح المفيدة التي اختار تجاهلها فيما بعد، وحصل بعد ذلك أن ارتكب خطأه الأكبر منذ خروجه من نيقية، قسم جيشه إلى قسمين، القسم الأول أن يسير على طول الطريق الساحلية مع معظم الرجال غير المحاربين، وبعض الفرق المقاتلة، تحت قيادة أسقف منظمة فريزنغ في حين تولى قيادة الباقين قليلي القوة في نية لأخذ الطريق البرية وسط الأناضول. وكان هذا العمل من الحماقة، ولكن يبدو أنه لم يخبر أحداً بذلك، وبعد فترة وجيزة واجهت المجموعة النتيجة المؤكدة.

وجرت الأمور بشكل حسن لفترة عشرة أيام أولى سار خلالها كونراد وجيشه عبر البلاد التي سيطر عليها البيزنطيون، ولكن في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول وصلوا إلى دوريليوم حيث نال الصليبيون الأوائل نصرهم العظيم الأول على الأتراك قبل نصف قرن من الزمن، ومرة

أخرى كان الأتراك في انتظارهم هناك. وكان الألمان في حالة تعب من مسير رحلة النهار، وغير متأهبين تماماً للانقضاض المفاجئ العنيف الذي قام به الجيش السلجوقي، الذي كان فوقهم قبل أن تتمكن قوة المشاة المتعبة من اتخاذ تشكيلاتها للمعركة أو أن يعتلي الفرسان مطاياهم، ونفذ الحكم النهائي المقدر حيث لم يكن ثمة مقاومة منتظمة، وقتل العديد من الصليبيين، في حين دمرت الخيالة التركية الباقين الذين كان لديهم الفكرة والشجاعة لمحاولة الانسحاب بنظام، وتدبر كونراد وبقية صغيرة تدعو إلى الشفقة من جيشه أمرهم في الوصول إلى نيقية بعد عدة أيام، في حين كان الأتراك يحتفلون بنصرهم ويحصون غنائمهم التي استولوا عليها.

وفي تلك الأثناء، وهم غير مدركين بمصير رفاقهم في السلاح سارت مفرزة أسقف منطقة فريزنغ على طول الساحل الايجي حتى تحولوا إلى الداخل إلى فلادلفيا في طريق مختصرة إلى البحر المتوسط عبر الزاوية الجنوبية الغربية من الأناضول، وسارت الأمور بشكل حسن حتى وصلوا إلى لودوشيا حيث هاجم الأتراك أيضاً وهزموهم هزيمة منكرة، وتدبر الذين نجوا بأنفسهم أمرهم بشق طريقهم نحو الجنوب وإلى الساحل رغم أن العديد مات جوعاً وحرماناً في الطريق، وبعد هجوم آخر من قبل الأتراك في شهر شباط 1148 فقد العديد منهم حياتهم ووصل الأسقف وبعض المتشردين إلى أنكاكية ومنها أبحروا إلى سورية.

وبينما كان الأتراك يهلكون القسم الأعظم من ألمان كونراد، كان لويس يعد نفسه مع الرجال الفرنسيين لمغادرة القسطنطينية، ووصل إلى نيقية في بداية شهر تشرين الثاني وهناك علم بخبر ما جرى لكونراد، وكان لويس شاباً ورعاً غير أهل بالقيادة العسكرية، كما كان لا يقدر كالملك الألماني ـ في معظم الأحيان ـ أن يجزم أمره بقرار أمر من الأمور، ووقع نبأ تدمير الألمان كصدمة، ودعا إلى إجراء حل، هو ألا يرتكب نفس الأخطاء، ووفق ذلك، اجتاز بالبقية الباقية من المعسكر الألماني عندما أخذ كونراد قسطاً من الراحة والتقاه لوقت كاف، وقرر الملكان جمع القوتين معاً ثم انطلقا في 8 تشرين

الثاني مع طول الطريق الساحلية التي تذهب جنوباً عبر بيرغامون وأزمير وافسوس. ورغم أنها طريق طويلة إلى جهة البحر المتوسط أثر من تلك التي سلكها أسقف فريزنغ، ولكن معظمها تمر عبر بلاد يسيطر عليها البيزنطيون، ولذا كانت أكثر أماناً من الطريق الأقصر عبر فريجيا.

وجرى كل شيء على ما يرام بشكل محتمل في الأيام الأولى، ولكن مع مضي الوقت وصل الجيش إلى افسوس وفسدت العلاقات بين الألمان والفرنسيين، وبشكل طبيعي ضجر الألمان مما نزل بهم أخيراً، فتخلفوا مسيرة يوم تقريباً عبر الفرنسيين الذين عمدوا إلى السخرية من بطئهم في صراخ قائلين: «توقفوا للألمان ـ توقفوا للألمان» وهي صيغة معينة يحتفظ بها للخيول المصابة بالربو، ولم تزد من تعاطف الألمان تجاه حلفائهم، وفي افسوس سقط كونراد صريع المرض، وتبين أنه لن يستطيع الاستمرار في الرحلة، وتابع الجيش مسيره دونه تاركاً إياه يشق طريقه بالعودة إلى القسطنطينية، حيث رحب به مانوئيل بكل علامات الاحترام والعطف، ولكن الألمان شعروا بدونه بالخسارة الكبيرة أكثر من قبل، وعندما تلاحقت أسابيع رحلتهم الطويلة تطورت كراهيتهم للفرنسيين إلى حد المرارة، ومع عيد الميلاد ظهر الاتراك مرة أخرى وبدأوا بمضايقاتهم بالغارة على المدّ المتطاول من الصليبيين المتعبين.

وفي يوم رأس السنة الجديدة 1148 حاول الأتراك منع الصليبيين من عبور نهر خارج أنطاكية في بسيديا، فأخفقوا، ولكنهم أنزلوا بعض الخسائر في الفرنسيين. وبعد ثلاثة أيام هجومهم مرة أخرى قرب لوديشيا وكانت خسائر الصليبيين أكبر، وبعد ذلك أصبحت رحلتهم كالكابوس، فقد كانوا في حاجة ماسة وإلى حد يبعث على اليأس إلى الطعام والماء، كما ازدادت وعوة الطريق، وساء الطقس إلى حد مؤلم بهبوبّ الرياح الثلجية الباردة من سيبيريا، وهاجم الأتراك أجنحتهم مثل روح منتقمة ملتقطين الضعيف والكبير والمتعب والطائش منهم بقسوة كافية، وكانت بعض سرايا من الحجاج الألمان قد حاولت عبور هذه الطريق قبل أشهر قليلة، ولكن الأتراك استحوذوا عليهم ولم

يسر منظر جثثهم المتعفنة رجال الملك لويس عندما تقدموا بصعوبة باتجاه مرفأ أنطالية على الساحل البحر المتوسط، ومع بداية شهر شباط رغم قلة عددهم وصلوها وتنفسوا عندئذ الصعداء.

ولكن تنفسهم هذا جاء مبكراً، فقد كان المواطنون في عوز إلى الطعام الذي لم يكن ليوفر إلا القليل للفرنسيين، كما لم ثمة متسع لإقامتهم في المدينة، واضطروا للمعسكرة خارج المدينة، وحالما فعلوا ذلك اجتاحهم الأتراك وهاجموهم، ولام الصليبيون وهم غاضبون وخائبون وفي جوع شديد البيزنطيين الخونة، واتهموهم بالخيانة ضدهم، بينما اعتبرهم هؤلاء على نحو مزدر برابرة، فهم لم يدعوهم لغزو مدينتهم في تلك الطريقة بالإضافة إلى إكراه الأتراك على إذلالهم، وكان تبكيرهم في المغادرة قد جلب السرور لسكان أنطاكية وأيخراً غادروا، ولم يكن هناك سفن كافية لحمل الجيش كله، ولذا ركب لويس مع حاشيته والقسم الأعظم من الفرسان، وأبحر إلى سورية حيث وصلها في منتصف آذار، ولحق الباقي والفرسان عبر البحر أيضاً بعد عدة أسابيع، وطلبوا إلى المشاة أن يجعلوا طريقهم شرقاً كأفضل ما يفعلوا، وتم ذلك أخيراً، وبعد رحيل قادتهم وابتعادهم مات العديد منهم في الطريق، كما قتل الأتراك الكثير، ثم إن البقية المحظوظة وصلت بعدتيه إلى أنطاكية في أواخر الربيع في حالة سيئة للغاية من الجوع وضعف المعنويات، ولقد عوملوا معاملة سيئة بشكل لا يصدق، ولكنهم أخيراً وصلوا.

وأستقبل لويس وحاشيته من قبل ريموند صاحب أنطاكية، الذي رافق الركب الملكي إلى داخل المدينة حيث أضافه بما يناسب ويليق بمنزلته، كما نزل الملك والملكة مع النبلاء الرئيسيين وزوجاتهم في كنف مترف، وكان الطقس رائعاً عندئذ، وسرعان مانسي الجميع الرعب والمشاق في رحلتهم، وعندما وصل النقاش حول المستقبل القريب، وأفضل السبل لمهاجمة المسلمين برهن الملك لويس على أنه متردد عندما أرادته كل فئة أن يقوم بأعمال مختلفة، فقد أراد ريموند في أنطاكية أن ينضم الفرسان الفرنسيون الذين لم يعانوا شيئاً فظيعاً مثل المشاة إلى الجيش الأنطاكي في هجوم على

حلب، كما أراد الكونت جوسيلين مساعدة الملك لويس في استعادة الرها، كما ناشده ريموند صاحب طرابلس، ابن عم لويس، مساعدته في استرداد قلعة رفنية الاستراتيجية. وقبل أن يعزم على أمر يتبناه من تلك الخطط ظهر وضع جديد تماماً، فقد كانت زوجته الملكة اليانور ابنة أخي ريموند صاحب أنطاكية، ولأسباب عائلية أو بسبب ظنها أن خطتها كانت الأفضل بين الثلاثة، فقد بدأت بحض زوجها لويس على القيام بما أراد ريموند. والانضمام إلى قواته ضد جيش نور الدين، ودافعت عن قضية عمها بكثير من الحماسة حتى أصبح لويس يغار منه، فلماذا هي مناصرة له كثيراً، ولماذا كانت تمضي وقتاً طويلاً مع عمها؟. إن كل ذلك ليدعو إلى الشك، أيمكن أن يكون شعور أمير أنطاكية نحو إبنة أخيه أحر منه عند عم ما؟، وأزعجته تلك التساؤلات، وأخيراً أعمل عقله في شعور بالاشمئزاز، وأعلن عن نيته في المغادرة إلى القدس على الفور، وأصبحت الملكة اليانور التي كانت تملك من الذكاء ضعفه ومن التصميم أكثر من ذلك، أصبحت في حالة هياج، فكيف يجرؤ على اتهامها بمثل هذا الشيء؟ فإذا أراد الذهاب إلى القدس فلتدعه مهما كلف الأمر يذهب دونها، أما بالنسبة لها فيه ستمكث في أنطاكية وتفارقه، لكن لويس أخذها بالقوة من أنطاكية، وحمّلها في سجن فعلي إلى القدس، أما ريموند صاحب أنطاكية، عمها أو السبب غير الذكي في المشكلة، فكان أيضاً مهتاجاً أكثر من ابنة أخيه، ومنذ لحظة رحيلها الإجباري نذر ألا يتعاون مع لويس مرة ثانية في حال من الأحوال، بل لن يتكلم إليه أبداً.

ولدى وصوله إلى القدس تحلل الملك لويس من نذره كحاج بزيارة الأماكن المقدسة، ورافقه كونراد الثالث امبراطور ألمانيا الذي وصل أخيراً في سفينة بيزنطية إلى هناك، وبعد قيامهما بواجبهما المقدس قبل الأميران دعوة الملكة ميليسندا والملك الشاب بلدوين الثالث لحضور مؤتمر في عكا مع جميع القادة الصليبيين من أجل تقرير ما بعد ذلك، أما ريموند صاحب أنطاكية فرفض القدوم، وكذلك ريموند صاحب طرابلس، واتهمته أخيراً إشاعة بتسميم ابن ريموند صاحب تولور الذي مات متألماً بعد فترة وجيزة من وصوله إلى

الممالك الصليبية ومن المستحيل القول فيما إذا كانت ستختلف الأمور لو أنهما كانا حاضرين. ولكن بالتأكيد كان لدى ريموند أنطاكية فكرةسامية في شخصيته الصغيرة أكثر ما لدى الملكين في رأسيهما، ولعله لم يكن قادراً على التأثير على القرار الذي اتخذه أخيراً، وكان قراراً كله حماقة غير متصورة تقريباً إذ قالوا ستهاجم الجيوش المتحدة للصليبيين دمشق.

وكان سكان دمشق المسلمين الوحيدين الذين بقوا على علاقات جيدة مع جيرانهم المسيحيين. وذلك بسبب وجيه جداً، فقد كانوا متخوفين من طموح نور الدين بقدر تخوف الإفرنج أنفسهم، وتأكد أن القرار الذي اتخذ في عكا كان سيرميهم بين ذراعي نور الدين الذي كان أخطر أعداء الصليبيين، كما دعمه ذلك إلى حد كبير، وأضعف المسيحيين بشكل موافق له، وكان عملاً يتسم بالحماقة والسخافة، وزاد سوءاً بالطريقة التي عوملت فيها الحملة الصليبية من قبل سكان دمشق إلى درجة القنوط.

كان الجيش الذي انطلق في تموز 1148 للهجوم على دمشق أضخم جيش جمعه الإفرنج وقد وصل إلى ضواحي المدينة يوم السبت 24 تموز وهو في حالة ثقة بالنفس كبيرة، وأخذ الحاكم المسلم بشكل مفاجئ، لأن هجوم الإفرنج كان آخر شيء توقعه، ولكنه تمكن بسرعة من جمع رجال كثيرين، وأرسل رسائل إلى نور الدين يطلب منه القدوم لإنقاذه، وفي تلك الأثناء احتل الصليبيون الحدائق والبساتين وغابات الزيتون المحيطة بالمدينة، وعندما وصلوا إلى قرية تدعى بالمزة، حاول جيش المسلمين، كما هو متوقع ايقاف تقدمهم، ولكنه هزم وأجبر على اللجوء إلى المدينة، ولو أن الصليبيين صعّدوا هجومهم على أسوارها لأمكنهم الاستيلاء على دمشق، لأنها كانت في الداخل في حالة فوضى ويأس، ولكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم وفقدوا فرصتهم[1]، وفي اليوم التالي بدأت الإمدادات بالوصول في أعداد متزايدة،

(1) مجرد أوهام تدحضه المصادر من لاتينية وعربية، انظر كتاب د. سهل زكار ـ الحروب الصليبية ط. دمشق 1984.

وقام الدمشقيون بهجوم مضاد، وأجبروا المسيحيين على التراجع عن الأسوار إلى داخل البساتين التي قدموا منها، وبعد يومين آخرين، استمر القتال، وقتل العديد من المسيحيين من قبل المقاتلين بشكل عصابات الذين زحفوا عليهم تحت غطاء أشجار الفواكه والزيتون التي عسكروا بينها، ومن أجل الاختباء من المهاجمين تحرك الجيش إلى سهل مفتوح إلى الشرق من المدينة حيث ليس ثمة ملجأ يختفي فيه فأر، وابتعدوا عن المقاتلين على شكل عصابات، وأملوا أن يجدوا الأمان من أعدائهم. ولكن اختيار الموقع الجديد كان كذلك خطأ فاضحاً قام به القادة الثلاثة لويس وكونراد وبلدوين، حيث كانت الأسوار المقابلة للموقع الجديد أكثر قوة من أي مكان آخر في محيط دمشق، كما كان من الصعوبة إيجاد نقطة ماء في أي مكان قرب المعسكر الجديد، ولذا كان موقعهم لا يدعو إلى الأمل، وفي يوم 28 تموز أي بعد أربعة أيام من وصولهم، وعندما شعرت المدينة بالثقة وتأكدت من النصر المجيد، تراجع الصليبيون في خزي، ولقد أخفقت الحملة ضد دمشق، وأصبح الدمشقيون حلفاء لنور الدين، الذي وصل فرسانه الأتراك في وقت مناسب لإزعاج السميحيين المنهزمين، وصبوا سهامهم عليهم، وللتأكد من أن الطريق التي سلكوها قد غطتها الجثث المتعفنة لعدة شهور قادمة.

وتلت الإخفاق التام اتهامات مزعجة بين الأمراء القياديين، ولم يستقر الرأي على من يلام بالضبط بذلك، فعلى الأرجح أن كونراد ولويس، وكلاهما غريبان بسياسات المنطقة قد ضغطا بقوة على الأمراء المحليين بشأن قرار الهجوم على دمشق، وكان هؤلاء يعلمون كم كانت قيمة تحالفهم مع دمشق، ولكن لم يجرؤوا على الضغط على معارضيهم بقوة كثيراً خوفاً من فقد دعم الملكيين، ولكن هذا مجرد حدس، وفي أوائل شهر أيلول أعلن كونراد بغضب عن نيته لنفض نعله من غبار الممالك الصليبية، والإبحار إلى سالونيكا حيث جدد صداقته مع الامبراطور مانوئيل، ووقع معه اتفاقية وعد فيها الاثنان بمساعدة الواحد الآخر ضد النورمانديين، وخاصة ضد روجر صاحب صقيلة،

الذي قام مؤخراً بأعمال انتقامية في جزيرة كورفو، وسلب مدينتي طيبة وكورينثا في أعمال حرب مكشوفة ضد البيزنطيين، ومن أجل تعزيز التحالف تزوج أخو كونراد هنري صاحب النمسا من ابنة أخ مانوئيل ثيودورا، وأقيم الاحتفال بالفخامة البيزنطية المعتادة ولم تمنع روعة هذه المناسبة بعض البيزنطيين من الكتابة إلى والدة الفتاة للتعبير عن خوفهم من منظر هذه الأميرة المتمدنة الفاتنة وهي تشارك الحياة مثل هذا البربري الواضح وعبر عن ذلك أحد الشعراء بقوله: «لقد ضحي بها إلى وحش من الغرب».

وفي أثناء ذلك لم يكن الملك لويس قادراً على حزم أمره فيما إذا كان سيعود إلى الوطن، ومتى سيكون ذلك، ومكث في فلسطين يعالج استياءه المتزايد ضد كونراد ويطيل التفكير بعبوسه مثل طفل المدرسة بالطرق المناسبة لقهر المستقبل، وعندما سمع بخبر التحالف مع مانوئيل شعر بازدراء وغضب أن الملك الألماني قد زحف إليه بالخفاء، وامتد استياؤه ليشمل الامبراطور أيضاً، وساعدته الأخبار ليقرر أمره فقرر تغيير سياسته بالتحالف مع روجر صاحب صقلية، وبالتالي يغيظ كونراد ومانوئيل، وفي عيد الفصح سنة 1149 اعتلى سفينة صقلية متخذة طريقها إلى كالابريا ومنها سافر إلى بوتنزا حيث استقبله روجر، ولم يجد النورماندي صعوبة في إقناع لويس بمساعدته في تأسيس حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية، وعندما عاد الملك أخيراً إلى فرنسا لم يجد بدوره أيضاً صعوبة في إقناع برنارد راعي كليرفو بالوعظ بعنف وغضب ضد البيزنطيين كما هاجم المسلمين بعنف في السابق ولقد كانت نهاية غير مهذبة للحملة الصليبية الثانية لمسيحيين في الغرب يبشرون بحرب مقدسة ضد مسيحيين في الشرق، ولكنها في عامل الزمن لا شيء، ولم يكن لدى البابا أو الملك كونراد أي شيء يفعله في الحملة الصليبية المناهضة للمسيحية، ولذا سقطت الفكرة، ومع ذلك من سوء الحظ بالنسبة للعالم المسيحي أنها لم تنس على الأطلاق.